

باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين

وهو باب من يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه. قال الملك للفيلسوف: قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثلاً في شأن الرجل الذي يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه. قال الفيلسوف: إن مثل ذلك مثل الحمامة والثعلب ومالك الحزين. قال الملك: وما مثلهن؟ قال الفيلسوف: زعموا أن حمامة كانت تفرخ في رأس نخلة طويلة ذاهبة في السماء، فكانت الحمامة تشرع في نقل العش إلى رأس تلك النخلة، فلا يمكن أن تنقل ما تنقل من العش وتجعله تحت البيض إلا بعد شدة وتعب ومشقة: لطول النخلة وسحقها^(٣٤٣)، فإذا فرغت من النقل باضت ثم حضنت بيضها، فإذا فقست وأدرك فراخها جاءها ثعلب قد تعاهد ذلك منها لوقت قد علمه بقدر ما ينهض فراخها، فيقف بأصل النخلة فيصيح بها ويتوعدها أن يرقى إليها فتلقني إليه فراخها. فبينما هي ذات يوم قد أدرك لها فرخان إذ أقبل مالك الحزين فوق على النخلة. فلما رأى الحمامة كثية حزينة شديدة الهم قال لها مالك الحزين: يا حمامة، مالي أراكي كاسفة اللون سيئة الحال؟ فقالت له: يا مالك الحزين، إن ثعلباً ابتليت به كلما كان لي فرخان جاء يهددني ويصيح في أصل النخلة، فأفرق منه فأطرح إليه فرخي. قال لها مالك الحزين: إذا أتاك ليفعل ما تقولين فقولِي له: لا ألقى إليك فرخي، فارق إلي وغرر بنفسك. فإذا فعلت ذلك وأكلت فرخي، طرت عنك ونجوت بنفسي. فلما علمها مالك الحزين هذه الحيلة طار فوق على شاطئ نهر. فأقبل الثعلب في الوقت الذي عرف،

فوقف تحتها، ثم صاح كما كان يفعل: فأجابته الحمامة بما علمها مالك الحزين. قال لها الثعلب: أخبريني من علمك هذا؟ قالت: علمني مالك الحزين. فتوجه الثعلب إلى مالك الحزين على شاطئ النهر، فوجده واقفاً. فقال له الثعلب: يا مالك الحزين: إذا أتتك الريح عن يمينك فأين تجعل رأسك؟ قال: عن شمالي. قال: فإذا أتتك عن شمالك فأين تجعل رأسك؟ قال: أجعله عن يميني أو خلفي. قال: فإذا أتتك الريح من كل مكان وكل ناحية فأين تجعله؟ قال: أجعله تحت جناحي. قال: وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحك؟ ما أراه يتهيأ لك. قال: بلى: قال: فأرني كيف تصنع؟ فلعمري يا معشر الطير لقد فضلكم الله علينا. إنكن تدرين في ساعة واحدة مثلما ندري في سنة، وتبلغن ما لا نبلغ، وتدخلن رؤوسكن تحت اجنحتكن من البرد والريح. فهنيئاً لكن فأرني كيف تصنع. فأدخل الطائر رأسه تحت جناحه فوثب عليه الثعلب مكانه فأخذه فهمزه همزة دقت عنقه. ثم قال: يا عدو نفسه، ترى الرأي للحمامة، وتعلمها الحيلة لنفسها، وتعجز عن ذلك لنفسك، حتى يستمكن منك عدوك، ثم أجهز عليه وأكله.

فلما انتهى المنطق للملك والفيلسوف إلى هذا المكان سكّت الملك. فقال له الفيلسوف: أيها الملك عشت ألف سنة، وملكيت الأقاليم السبعة، وأعطيت من كل شيء سيباً، مع وفور سرورك وقرّة عين رعيتك بك، ومساعدة القضاء والقدر لك، فإنه قد كمل فيك الحلم والعلم. وزكا منك العقل والقول والنية، فلا يوجد في رأيك نقص، ولا في قولك سقط ولا عيب. وقد جمعت النجدة واللين، فلا توجد جباناً عند اللقاء، ولا ضيق الصدر عندما ينوبك من الأشياء. وقد جمعت لك في هذا الكتاب شمل بيان الأمور، وشرحت لك جواباً ما سألتني عنه منها فأبلغتك في ذلك غاية نصحي، واجتهدت فيه برأيي ونظري ومبلغ

فطتني، التماساً لقضاء حقك وحسن النية منك. بأعمال الفكرة والعقل.
فجاء كما وصفت لك من النصيحة والموعظة مع أنه ليس الأمر بالخير
بأسعد من المطيع له فيه، ولا الناصح بأولى بالنصيحة من المنصوح،
ولا المعلم للخير بأسعد من متعلمه منه. فافهم ذلك أيها الملك ولا
حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(انقضى باب الحمامة والتعلب ومالك الحزين وهو آخر فصول
الكتاب)

حكاية الحمامة والثعلب ومالك الحزين

تحليل النص:

لم يؤلف بيدبا الفيلسوف كتاب (كليلة ودمنة) من تلقاء نفسه، لم يؤلفه محبة في التأليف، وإنما استجابة لرغبة عبّر عنها دبشليم ملك الهند دبشليم هو الذي أمر بيدبا بتأليف الكتاب، لا بد إذن أثناء التحليل من الانتباه إلى مشاركة المتلقي لما كان هناك سرد ولا تأليف.

ينبغي أن نضيف أن دبشليم يسمع صوته داخل الكتاب، إذ هو الذي يقترح في بداية كل فصل الموضوع الذي يجب أن يتطرق إليه بيدبا، كل فصل يفتح بأمر يصدر من دبشليم، وبعد ذلك يأخذ بيدبا في الكلام، يقوم بتنفيذ الأمر بتعبير أدق، بيدبا ينسب الأمر إلى دبشليم، إن تدخلات هذا الأخير منسوبة إليه، وإن كان في الواقع لم يتدخل في تفاصيل الكتاب، كل ما فعله دبشليم أنه طلب من بيدبا تأليف الكتاب، فإذا بيدبا يجعله يقترح موضوع كل باب من أبواب الكتاب.

يحرص بيدبا على أن تتكون عند دبشليم رغبة في السرد، وذلك حتى يضمن متابعة يقظة ومتحمسة، ويجعل المتلقي يشارك في العملية السردية، إذ لم يبد المتلقي رغبة في الاستماع، فإن السرد يصبح بلا معنى وبلا جدوى، الراوي يحرص إذن على أن يكون ملبيًا لدعوة صادرة عن المتلقي، وبدون هذه الدعوة يصير طفيليا لا يصغى إليه ولا يأبه له.

السرد يحتاج إلى الإعلان عن نفسه بصيغة من الصيغ تكون بالنسبة إلى الحكاية كالإطار بالنسبة للوحة، وهكذا فإن عبارة (زعموا أن) تعلن للمتلقي أن السرد قد بدأ وتحدد نوعه.

عندما يورد بيدبا حكاياته فإنه لا يدّعي أنه اخترعها بل ينسبها إلى أشخاص لا يسميهم، وهذا ما نجده في عبارة (زعموا أن)، ترى من هم أصحاب الزعم؟ من اخترع الحكايات؟ وعلى الرغم من كوننا لا نهتدي إلى جواب دقيق، فإن بوسعنا أن نقول إن بعض ملامح أصحاب الزعم تفرض نفسها:

أ_ أنهم عاشوا قبل بيدبا، وهذا السبق في الزمن يمنحهم مزية عظيمة.

ب_ هم حكماء حكوا ما حكوا قصد إفادة من سيأتي بعدهم ويطلع على أقوالهم، فالحكمة تنبع من الماضي والسلوك المحمود هو الذي يكرر النماذج السالفة.

ج_ لا يصرح ببدا بان الحكماء الذين أخذ عنهم أهل ثقة وأصحاب فضل، ولكنه يشير ضمناً إلى أن الحكمة خرجت من أفواههم، إلا فلم يردّد ما قالوا؟ لم يروى عنهم؟ لم يستشهد بكلامهم؟

د_ هذا الاستشهاد المتواتر يدل على أنه يقدرهم ويرى فيهم معدن الحق والخير، الصورة التي يرسمها لهؤلاء الرواة هي صورة حكماء عاشوا في زمن النبع الذي يجب أن يرتوي منه كل من ينشد الحكمة، إنهم تجسيد للحكمة، وبهذا المعنى لا داعي لتسميتهم لأن الإعلان عن هويتهم لن تترتب عنه إلا حكمة نسبية مرتبطة بأمور طارئة وعارضة/ إن ما يرمي إليه ببدا هو على العكس منح الحكمة صيغة المطلق أو الضرورة القصوى، بحيث تصير قائمة بذاتها لا تعتمد على أي سند أو مرجع معين. (عبد الفتاح كليطو، الحكاية والتأويل (دراسات في السرد العربي)، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1988)

وتنقسم الشخصيات في هذه الحكاية إلى:

أ_ شخصيات رئيسية: وهي كما يلي

_ الثعلب: يقوم بدور الشخصية الغادرة التي تستخدم الغدر والمكر للإطاحة بفريسته.

_ الحمامة: تمثل دور الأم الرحيمة على فراخها، الشخصية الضعيفة التي تستسلم للظلم ولا تعمل عقلها للدفاع عن نفسها.

_ مالك الحزين: يمثل الشخصية الذكية المغرورة، والناصحة لغيرها، ورغم ذلك لا تسلم من خبث الثعلب.

ب_ شخصيات ثانوية: وتمثلت في الفراخ التي تعتبر محور القصة، فهم ضحايا الثعلب الماكر.

أما الأمكنة فتتنقسم إلى قسمين: الأماكن المغلقة (العش)، الأماكن المفتوحة (النهر).